صـــــورة البطل الملحمـــــي

في شعر السلطان أبي حمو الزياني

أ . أحمد موساوي

جامعة ورقلـــــة

الجزائر

يقول الشاعر الإنجليزي (دريدن)[1] « إن قصيدة البطولة أعظم ما استطاعت الإنسانية أن تنتج»[1] ، هذه القصيدة التي تواضع المبدعون والدارسون والمؤرخون على تسميتها بالملحمة كانت ملتقى طموح الإنسان قديما، ومن أبرز وأرقى مثيرات مخيلته ، وظلت ميدانا خصبا ينهل منه الدارس والمبدع الفنان.

وإنّ هذا النص الإبداعي قد لازمته سمة عامة هي البطولة وما يحيط بها من معان وقيم، وهي خاصية وسِمَة لا يصل إليه إلا من ضحى في سبيل مثلٍ ومعان سامية، غير ملتفتٍ إلى شهوات النفس وإغراءات المادة والجسد ، ولا يمكنها بأي حال من الأحوال أن تثني بطل الملحمة من غرضه الأسمى ونداء الواجب وهو خير الجماعة والأمة والإنسانية.

ولا يمكننا أن ننصرف إلى نص أبي حمو موسى السلطان الزياني دون الإشارة إلى أن البطولة الملحمية مصطلح ارتبط بملاحم عدّة ورثتها البشرية ، وهي نصوص موغلة في القدم، نتذكر منها ملحمة قلقامش[2] ، هذا البطل الأسطوري الذي رفض فراق صديقه (أنكيدو) وهو في رقدته الأبدية ، بل أصرّ على مواصلة كفاحه بحثا عن الخلود معاندا ومكابرا، وإلى جانبه نجد الأسطورة تحكي وقائع قصة الاسكندر الأكبر[3] وحروبه وبطولاته الخارقة من أجل الوصول إلى نبع الحياة بحر الظلمات لعله إذا شرب منه مُنع الخلود والبقاء.

وهكذا الأبطال الملحميون يسعون إلى أسمى وأخطر المطالب والمبتغيات

فتتناول الأساطير والملاحم تلك الرغبات في قالب فني خلاق يتحول من خلالها البطل إلى إله حي خالد، ولكل نص من هذه النصوص الشعرية أو النثرية أساليب خاصة في التعبير عن هذه المعتقدات والكشف عن تلك الرغبات الكامنة في البقاء. فهذه ملحمة قلقاس وتلك إلياذة هوميروس[4] وأخرى هي إنياذة فرجيليوس، وغيرها من الملاحم التي أبرزت لنا إنجازات أبطالها وأعمالهم الخارقة وصفاتهم المقترنة بالآلهة بصورة رامزة إلى تحقيق المطلب القديم وهو الوصول إلى نبع الخلود.

وما يشدنا أكثر في هذه النصوص هو تلك التركيبة الجمالية والواقع البطولي الملحمي للشخصيات أكثر من ميلنا إلى الغاية المرجوة والهدف المرسوم، وهذا ما نبحث عنه أيضا في النصوص الأدبية العربية الموروثة، كملحمة عنترة أو الهلالية أو ملحمة (علي بن أبي طالب –كرم الله وجهه–) وغيرها، فهي نصوص نثرية كانت أو شعرية، نشترك مع ملاحم الغرب في الكثير من النقاط لأنها تكشف عن نوازع بشرية، وطموحات يحملها الأبطال إضافة إلى تحولهم إلى أبطال أسطوريين في المخيّلة المبدعة وهي صفات تربطهم بأمثالهم السابقين من أبطال الرومان واليونان الخالدين أو الطامحين إلى الخلود.

ولنا في أدبنا نصوص عدة لم يلتفت إليها الدّارسون، تكشف عن هذا التوجه الملحمي وتؤكده كبعض نصوص المتنبي الحماسية وشعر عنتره، والتي لا تخلو من سمات البطل العربي الفاتح والقاهر للأعداء بقوّته وجلده وبخصاله الحميدة. فشدة وكرم ورقة في الوقت نفسه، والبطل الملحمية الحق هو جماع كل الخصال الإنسانية.

ولعل أقرب نص توفّر لنا في هذا التوجه هو نص السلطان الشاعر أبي حمو موسى الزياني حينما كان يسعى إلى استرجاع مُلك قومه ودخل تلمسان فاتحا عام 760هـ، ومن خلال قصيدته هذه سنحاول تلمس الملامح التي تشكل صورة هذا

السلطان البطل الذي أبى إلا أن يخلد فتحه ودخوله عاصمة مملكته التي حُرم منها لفترة طويلة، فكانت العودة وكان النصر بطوليا ملحميا يستوجب نصًّا شعريا ملحميا يتطابق مع ذلك الواقع.

ومن خلال اقترابنا من النص نجد سجايا البطل السلطان تنكشف الواحدة تلو الأخرى، وعلى رأسها الجانب الإنساني العاطفي الصادق الذي يكشف معدنه ورقته أمام المواقف التي تصدم دخيلة كل إنسان.

جرت أدمعي بين الرسوم الطواسم — لما شحطتها من هبوب الرّواكـــم
وقفتُ بها مستفهـــما لخطابـــها — وأي خـــطاب للصلاد الصـــلادم
وصفقت ما بين الظلول خوامسي — وفاضت سواقي الدمع مثل الأراقم[5]

إنها الفطرة الإنسانية ورقة النفس لدى فاتح المدينة ومسترجع المجد الذي فُقد، ولكنها وقفة ليست دائمة لأننا سنصل إلى مرحلة التحول من الألم واللوعة وذكرى الأزمنة الغابرة:

ديـــارٌ عهدنا بها الشّمل جامـــعٌ — مع الغانجات الآنسات النّواعـــم
وكـــم ليلة بات السّرور مساعدي — بسُعدى وسلمى والمنى أمّ سالم[6]

فالتحول كان إلى الشّدة والجلد والصبر على المكاره بغية النصر، ذلك الحُلم الجميل الذي اعتاد أبطال الملاحم التطلع والسعي إليه.

قطعت الفيافـــي بالقلاص وإنّما — تجابُ الفَلا بالخـــفِّ أو بالمناسم
وقد خِلتها بين الرياح زوابـــعا — تسابق في البيدا ظليم النعائـــم
ومعها أسود الحرب تطوي بها الفلا — يرون المنايا بعض تلك المغانـــم
وخضت الفيافي فَدْفَدا بعد فدفد — لنيل العلى والصبر إذ ذاك لازمي[7]

وتنضاف إلى شدة ووعورة الطريق وأهوالها، كوعورة طريق (إنياس) بطل الإنياذة الذي واجه العواصف وخطورة البحار من أجل مبتغاه وهو بناء مجده في روما، قلنا تنضاف إلى ذلك شدة الحرب والنزال ومواجهة العدو، فيستعين بالصبر

والرجال الشّداد:

وكم ليلة بتنا على الجدب والطوى نراقب نجم الصّبح في ليـــل عاتـــم
على متن صهـــال أغـــرّ محجـــل مديد الخطى لم يخشى صعب الصّلادم
رجالٌ إذا جاش الوطيس تراهـــم أسود الوغـــى من كل ليث ضُبارم[8]

وهنا تسعى الصورة الملحمية إلى التكامل عن طريق ذكر إطار حركة البطل وفعله حيث لا يغفل الشاعر ما يحيط به من رجال وجياد وصفاتهم، وكذا صبرهم على الألم والمواجهة لأن قائدهم رمز في الشدة والجلَد.

وجبتُ الفيافـــي بلدة بعد بلـــدة وطوعـــت فيها كلّ باغ وباغـــم
مكرٌ بيوم الحرب لا يشتكي الونى مـــفرٌ إذا طالت عـــظام الهزائـــم[9]

وفي هذين البيتين نلحظ انصراف الشاعر إلى ضمير المتكلم (أنا) بعدما سبق وأن استعمل ضمير الجماعة (نحن) وكأنه بطل فرد يقود جماعة وهذه سمات قديمة للبطل الأسطوري فهو بطل فردي كـــ(أوديسيوس) في أدوسية هوميروس، و(أغاممنون) في الإلياذة، الذين حققا البطولة الفردية الأسطورية، فهنا البطل عندنا شدّ البطولة الملاحمية إليه فهو القوي الشديد المتميز.

كما نجد في النص تطورا للأحداث والوقائع الملحمية المرتبطة ببطولة السلطان الفاتح وإنجازاته العربية:

نـــطارد فيها الخيل بالخيل مثلها فكان على الأعـــداء كرّ الهزاعـــم
حملنـــا عليهم حملـــة مضريـــة فولّـــوا شرادا مثل جفل النعائـــم
فكانوا إلى الطير الغشيم فرائسا وكانت على الأعداء شؤم الذّمائم[10]

إنه تصوير رائع لوقائع الحرب ونتائجها، وليست ببعيدة عن تلك الصور التي رأيناها في إلياذة هوميروس حيث الكر والفر والنزال، والقتلى تركوا فرائسا للسباع والوحش.

وما نلاحظه على النص أيضا تلك البطولات المتوالية، والتي تكشف عنها

الصعوبات والعراقيل التي يتعرض لها البطل وهي بمثابة اختيارات ترشيحية تكشف معدن وأحقية السلطان بالبطولة في الملحمة، ونجد ما يشابهها في الملاحم الأسطورية حيث تعترض الآلهة والجن والمصائب البطل الأسطوري فتعرقل سيره وتكشف في الوقت نفسه عن مقدرته وطاقاته في تخطي الصعاب والأهوال، فـ(إنياس) تعترضه الرياح والعواصف في البحار التي أرسلتها زوجة الإله جوبيتر وكرهها هذا البطل، ولكنه يتجاوزها ويواصل رحلته البطولية، وهكذا نجد بطلنا ينتصر في مرحلة ثم يواجه صعوبات أخرى في مرحلة موالية فلا تدوم الفرحة بالنّصر:

وهبت رياح النصر من كل جانب وجاءت إلينا مبهجات الغنائـــم
ولما قضينا الأمر في الحرب منهـــم رحلنا بعـــون الله نحو المعالـــم[11]

ولكن سرعان ما تلوح في الأفق محطة أخرى للحرب والنزال، لتدلك على أن رحلة البطل مليئة بالمتاعب غنية بالمكاره، تشترط الحذر واليقظة والصلابة:

درجنا إلى درج ولاحت بشائـــر بهلك الأعادي الناعسين الأشائـــم
ألا أيها الناعي البشير الذي نعـــى أمير مرين حزت أسنى المقاســـم
لقـــد قـــرّب الله البعيد بهلكـــه فبشراك بالخـــيرات يا خير قـــادم
وصارت أسود الغاب تأتي مطيعة و عادت لنا الأيام مثل المواســـم
وعجنا وعرجنا على واد يشـــر وجزنا المخاض كالليوث الضّراغم[12]

ومن مميزات الشعر الملحمي تعداد وسائل الحرب وذكر أحداثها وتقريب الصور إلى الناس، فيذكر زمن الحركة والتقدم، وتوصف الرايات المحمولة وصفوف المقاتلين، وحالة الأعداء ويعرف بالسيوف وجودتها وأنواعها، ولا ينس الشاعر فنون القتال والنزال :

كـــررنا عليهم كرة بعد كـــرة وقد سعرت للحرب نيران جاحم
بضربٍ يزيـــل الهام عن مسقره وطعن مضى بين الكلى والحيازم[13]

ولا ينس ذكر نتائج تلك الملاحم:

فهذا أسير صفدته يد الوغـــى وهذا قتيل في عجـــاج المصادم[14]

وفي الأخير، وبعد ذلك العناء وتلك المواجهات البطولية ، يصل البطل الملحمي إلى مبتغاه ويرد من منبع النّصر:

دخلت تلمسان التي كنت أرتجي كما ذكرت في الجفر أهل الملاحم

فخلصت من غصّابها دار ملكنا وطهـــرها من كل باغ وجـــارم

فصارت ملوك الأرض تأتي مطيعة إلى بابنا تبغي التـــماس المكـــارم[15]

في هذه المقاطع الأخيرة يكشف لنا البطل الفاتح خصاله في سياسة دولته بعد افتكاكها من الغاصبين وعودته إلى أمر الله ونصرة دينه،فالارتباط بالله واضح من البداية ثم العودة إليه بعد النصر والفتح المبين، فكما الأبطال الأسطوريون لا يخرجون عن طاعة آلهتهم وتقديم القرابين بعد النّصر والعودة إلى الوطن للاحتفاء به، يقدم السلطان قرباته إلى ربه عن طريق خدمة دينه وشكره والصلاة على نبيه الكريم.

فقمنا بأمر الله في نصـــر دينه وفي كف ما قد أحدثوا من مظالم

فلله منا الحمد والشكر دائما وصلى على المختار من آل هاشم[16]

فإن ما ميّز هذا البطل الملحمي العربي المسلم هو الاتزان والخضوع لسلطان العقل والارتباط بالله وسنة نبيه، في سلوكاته وحركته المستمرة نحو استرجاع مجده وملكه، فلا شهوات ولا عواطف تصرفه عن خطه ومشروعه، وسعيه الدؤوب لرفع الظلم عن وطنه وذويه، فسار على نهج سليم واضح من بطولة لأخرى، ومن فتح لآخر، حيث حقق الحلم المنشود وكسر شوكة الأعداء الذين عاثوا فسادا في أرضه ومملكته فطهرها منهم ومن جرائمهم وفتح بابه للوافدين والمبايعين والمباركين بالنّصر العظيم، هذا النّصر الذّي سبق وأن تمتع به (أوديسيوس) في القديم ونجد في حوار إله الأولمب (زيوس) مع (منيرقا) ربة الحكمة «... ما دام أوديسيوس قد ثأر لنفسه من أعدائه، فليكن السلام على الأرض، وليحل الأمان في ربوعها،

وليتقاسم الملأ على الودّ والصفاء، وليحكم أوديسيوس بين الناس بالعدل...وعلينا نحن أن نترع ما في صدورهم من غلّ، ويطرحوا ثاراتهم ثم لتكن لهم من أنفسهم أمَنَةٌ، ولتجر البركات عليهم أجمعين، وليصبحوا بحولنا أصفياء متحابين ».[17]

ولأبي حمو السلطان نص آخر يزكي هذه الوجهة ويدعمها ويدلل على أنه بطل في الحرب وبطل في السلم بسجاياه وقربه من الله :

حـــمّلني الملك ومَن يتـــوى ... يحمـــي ما فيـــه من الثقـــل
إلا بمعونـــــة خالقـــــنا ... مولـــى النعماء وخير ولـــي
أحـــمي المظلـــوم وأنصـــرُه ... وأقيـــم الـــحقّ على عجـــل
أنزاســت النـــاس منازلـــهم ... وتركـــت الظالـــم في وجل
وأنا للطفـــل كوالـــــده ... وأســـوق الشيخ على مهـــل
والرفق كذلك من شيمـــــي ... والعـــدل به أعطي أملـــي[18]

وإنها لنوايا حسنة وخلال بطل احتفظ له شعره بأزهى الصور الملحمية. وأردف على ذلك تاريخ الأبطال العرب والمسلمين.

الإحالات والمراجع

[1]- المصطلح في الأدبي الغربي، ناصر الحاني، المكتبة العصرية بيروت، ص111.

(2)- هندسة النص في السرد الأسطوري الملحمي (جلجامش)، قاسم المقداد ، دار السؤال –دمشق. ص44

(3) أشكال التعبير في الأدب الشعبي، نبيلة ابراهيم، مكتبة غريب –القاهرة، ص63.

(4) الأدب الاغريقي، تراثا إنسانيا وعالميا، أحمد عثمان، دار المعارف، ص30 –31.

5- أبو حمو موسى الزياني ، (حياته وآثاره) عبد الحميد حاجيات ، ش . و. ن . ت . الجزائر ، ص299.

6 - المرجع نفسه ، ص: 299.

7 -- المرجع نفسه ، ص: 300.

8 -نفسه ، ص:300.

9 --نفسه ، ص:301،300.

[10] --نفسه ، ص:302-304.

[11] -نفسه ، ص:304.

[12] --نفسه ، ص:304.

[13] --نفسه ، ص:305.

[14] --نفسه ، ص:305.

[15] --نفسه ، ص:307.

[16] --نفسه ، ص:308.

[17] - الأوذيسة هوميروس، ترجمة د. بهـ خشبة، دار الشؤون الثقافية العامة –بغداد، ص303.

[18] - أبو حمو موسى الزياني ، (حياته وآثاره) ، ص:310.